مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

نقد الأنثروبولوجيا اللغوية في القرن العشرين
النسبيّة اللغوية وإرث ما بعد الحداثة

الدكتور منذر شباني*

ديمة محمد حمدان**

(تاريخ الإيداع 7 / 12 / 2014. قبل للنشر في 17 / 2 / 2015)

□ ملخّص □

تطرح الأنثروبولوجيا اللغوية عدة إشكاليات تتعلق بالنسق الذي يمكننا أن ندرس اللغة من خلاله لذا يبحث هذا المقال في المذاهب والأفكار والنظريات التي تناولت مسألة اللغة والظّاهرة اللغوية من حيث تكوّنها وتشكلها في نطاق الفكر الفلسفي، والعلمي ، و إذا كان بإمكاننا أن نتوصل إلى نسق يحكم العلاقة اللغوية باستقلال عن الإنسان المتكلم ، ونعرض أيضا وجهة نظر البنيوية والاتجاهات اللغوية الأخرى في القرن العشرين ، ومناهجها ، وصولاً إلى المنهج التاريخي الذي وقف في وجه هيمنة الفكر الإمبريالي، الفكر الذي حَجّم الظاهرة اللغوية مُغيّباً إياها عن المجتمع .

الكلمات المفتاحية: الأنثربولوجيا ، الأنثروبولوجيا اللغوية ، النسبيّة اللغوية ، الفونولوجيا .

*أستاذ مساعد – قسم الفلسفة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سورية .

** طالبة دراسات عليا (ماجستير) – قسم الفلسفة – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية –سورية .

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (1)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (1) 2015

Critics of The Linguistic Anthropology in the twentieth century Linguistic relativism and the postmodern legacy

Dr. Monzer shbani*
Dema Mohamad Hmdan**

(Received 7 / 12 / 2014. Accepted 17 / 2 / 2015)

□ ABSTRACT □

The Linguistic Anthropology process many problematic thoughts , this problematic are all related with the arrangement which we can study language by its reveal.

So, as we well see this essay is arguing in methods , ideas and theories which discuss the language matter and linguistic phenomenon as its formation in the philosophical and scientific field, and if we could get to an arrangement overrule the Linguistic relation as its independence of talking man , and we will try to expose the structuralism and other linguistic turns in the twentieth century ,and its methods , and the social historical order which had stand in the face of the dominance the imperialism thinking , which distort the linguistic phenomena and distance this phenomena of society .

Key words: Anthropology, The Linguistic Anthropology, Linguistic relativism, phonology.

* **Associate Professor, Department of Philosophy, Faculty of arts And Humanities, Tishreen university, Lattakia , Syria.**
** **Postgraduate student, Department of Philosophy, Faculty of arts And Humanities, Tishreen university, Lattakia , Syria.**

مقدمة :

لطالما كان البحث عن الإنسان في التاريخ بالنسبة للانشقاقات التي أحدثتها مرحلة ما بعد الحداثة ،يبدأ من حيث تنتهي إحدى إرهاصات استقلاله عن الفعل التاريخي، حيث أفرزت مرحلة ما بعد الحداثة حالة رجعية بالنسبة للبحث الإنساني أجازت الانطلاق من صورة ثابتة للإنسان المتحقق على الأرض، وكأنه وصل إلى آخر مراحل تطوره .

منه نجد بحث الأنسنة بصورته الحديثة من العلوم، وقد نُحِتَ من معارف متنوعة جُمعت معا لتكوّن صورة معيارية لما أصبح عليه الإنسان بعد تطوره عن كائنات أخرى، وصولا إلى وضعه الحالي كسلالة متميزة بصفات مكتسبة وأخرى غريزية .

لطالما بدت الأنثربولوجيا وكأنها تحقق شروط هذا العلم، لتدرس البشر ككائنات متطورة عن طفرات طبيعية ، و باعتقادنا إن العمل على تطبيق هذا العلم ،أتاح للعديد من وجهات النظر الثابتة حول إنسان ما بعد الحداثة، تتحول إلى يقين، في ظل التوجهات الحالية لفصل الإنسان عن الفعل التاريخي بطريقة لا عقلانية ، لكنها على الرغم من ذلك لا تجرد الإنسان من حدود المنطق ،ليكون هذا الإنسان كائنا منفصلا عن الطبيعة بفعل دخوله التاريخ .

أن نبدأ بنقد موجه للأنثربولوجيا كمبحث إنساني، لم يكن إلا محاولة منا لنضع كل تركيزنا على تأثير ما بعد الحداثة على جسد العلوم التي نشأت في القرن العشرين، وانتهت لتعبر عن سقوط المذهب الإنسانوي في مرحلة الحداثة، والذي أقصى كل مرجعية أخرى لا تعود إلى الإنسان والتاريخ معا .

أهميّة البحث وأهدافه :

نعتقد إن متابعة مسار تكوّن فهمنا حول النظرية اللغوية السائدة في مرحلة ما بعد الحداثة ، سيقودنا إلى محاولة منهجية نستشف من خلالها ظاهرة اللغة ،التي أُسست على عُمُدٍ فلسفية، و وجدت في العقل الإنساني منطلقا لهذه الظاهرة ،ووسيلة لتغّيرها ، وتطورها ، ولكنها تحولت ضمن أُطر البحث ، ومن خلال تعدد المذاهب ، واختلاف أوجه النظر إلى نظريات جامدة تعاملت مع اللغة على إنها كائن قائم على خلفيّة بنيوية حرة ، لتتم معالجتها على هذا الأساس ، و باعتقادنا فإن كل ذلك قد خلق نوعا من الأزمة في إطار المناهج المستخدمة في دراسة اللغة ، ما استدعى إعادة طرح هذه المسألة مرة بعد مرة ، بالتالي فإن هذه المحاولة تدور حول وجهات النظر هذه لتعرض العناوين الكبرى التي تناولت الظاهرة اللغوية ، ولتتوقف عند أهم الشخصيات الفلسفية التي عالجت هذا الموضوع وبحثت في جوانبه باستخدام مناهج اختلفت باختلاف مذاهبها ، وأوجه فهمها له .

منهجية البحث :

حسب تصّورنا نجد البحث اللغوي أسوة بكل ما يتعلق بمنتجات الإنسان الحديث الثقافية، والفكرية، والمعرفية قد تمت مصادرته بفعل الفلسفات الشموليّة الحديثة، و أصدائها المعاصرة ليّكون صورة جامدة منتهيّة عن أنساق مستقّلة عن الوجود البشري ، ولتشكل نُظماً لا تعبّر عن الإنسان الفاعل في إطار الحياة المتجدد ، لكن تبنيّ المنهج الجدلي التاريخي من وجهة نظرنا قد يتيح لنا أن نوضح النقاط، والسبل التي استطاعت هذه الفلسفات من خلالها الإفلات من سلطة التاريخ لتبرز هذه الأنساق والنظم البديلة، لتبعد اللغة عن الإنسان الحي عن حياته وعمله وأفكاره المبدعة، لذا

سيتم اعتماد هذا المنهج ضمن إطار بحثنا لكونه يخدم الأهداف التي ننوي الوصول إليها ، مع اعتماد مناهج اخرى قد يتم العودة إليها تلبيّة لاحتياجات البحث .

اولاً– حتمية الظاهرة اللغوية بين القانون والسير الطبيعي :

تعتبر الأنثربولوجيا اللغوية ، محاولة لتوثيق اللغات، حيث استغلت الأنثروبولوجيا بشكل عام اللغة كظاهرة إنسانية لفهم البنى الاجتماعية المدروسة ، لتتبثق الأنثروبولوجيا اللغوية من الوسائل والطرق التي بحثت في أسس اللغويات وتشكلها بدءاً من الفكرة الأسطورية، وصولا إلى المرحلة النظرية، والتي بلغت مرحلة من التخصص جعلت هذا العلم – والذي يعد فرعا من الأنثربولوجيا – يتحول إلى اختصاصات متعددة ، ولتوخي أكبر قدر ممكن من الدقة لابد وأن نشير إلى المجال الذي نتجه إليه بحثاً وتحليلاً ، "فقد ظهرت ثلاثة نماذج عبر تاريخ التخصصات الفرعية الأول يعرف باسم لغويات الأنثربولوجيا ،والذي يركز على توثيق اللغات ، والثاني يعرف باسم الأنثربولوجيا اللغوية ،والذي يتعلق بالدراسات النظرية لاستخدام اللغة ، والنموذج الثالث الذي يدرس القضايا المتعلقة بالمجالات الفرعية الاخرى للأنثروبولوجيا باستخدام أدوات البحث اللغوية "[1].

يعتقد إن اللغات قد تطورت من الحاجة إلى التواصل بين بعضنا البعض ،والتعبير عن مكنونات أنفسنا ومشاعرنا مما سمح بتشكل منظومات معقّدة تختلف عبر الأمكنة، والأزمنة ،لتشكل حالة لا تتجزأ عن الإنسانية، و مظاهرها الحضارية ،لكن علوم اللغة في القرن العشرين بدأت بطرح العديد من الأسئلة، والفرضيات حول تشكّل الظاهرة اللغوية وطبيعة استمرارها، فهل نخلق اللغة ونعبر من خلالها، ونُشرف كبشرٍ متكلمين ومفكرين على تكوّنها، و نموّها ؟ أم إن اللغة تتشكل من حالة لا شعورية يفرضها هذا التواصل بين البشر لتستحيل إلى كائن مستقل يتنفس ويعيش على نبض الإنسانية المستمر الذي لا يتوقف ؟ .

إذا ما قيل إن هذه الأسئلة تمت الإجابة عنها مسبقا على شكل مذاهب اختلفت ، وتباينت نظرياتها وآراء مفكريها، فإن الإجابة الحائرة بين هذه المذاهب والنظريات تفترض إعادة طرحها، فقد بقيت معلقة لسبب مبهم يمكننا أن نستشفه في الإطار المنهجي، الذي قد يكون المبعث الأساس للحيرة في ما يخص اللغة، ومسائلها العالقة.

هنا تظهر الأنثربولوجيا المتعلقة بالدراسات النظرية لاستخدام اللغة بوصفها الإشكالية الأساس التي تتمحور حولها الأسئلة التي طرحت سابقا، والتي تطرح اليوم في فضاء البحث اللغوي الذي تميز في القرن العشرين – خصوصا في العقدين الأخيرين – لتكون فلسفة اللغة الفلسفة الجديدة تقريبا ،وإن لم يكن البحث في محاورها بالأمر الحديث الطرح ، وأحد هذه المحاور يتعلق بالجدل الدائر حول قانونية اللغات وسيرها الطبيعي .

حيث تذكر المؤلفات حول الأنثربولوجيا اللغوية نوعاً من الخلاف حول تاريخ اللغات ،وإمكانية احتواء الظاهرة اللغوية ضمن سياق يسمح بكشف أصولها والتنبؤ بالطرق والأدوات البحثية المستقبلية ،التي ستطرح ربما للتحليل والنقد والتفكيك ،هذه المحاولات ألقت صبغة العلم على البحث اللغوي، ليكون علماً نظرياً خالصاً لم يعد يرتبط إلا بسير الظاهرة اللغوية ذاتها لنجد أن "معظم قوانين اللغة المتعلقة بكل من الصوت والدلالة، تؤكد على أن الظواهر اللغوية لا تسير وفقاً لإرادة الأفراد والمجتمعات، أو تبعا للأهواء والمصادفات وإنما تسير وفقاً لنواميس لا تقل في ثباتها وصرامتها عن النواميس الخاضعة لها ظواهر الفلك ،والطبيعة فقد يكون باستطاعة الفرد ،أو باستطاعة الجماعة اختراع لفظٍ ،أو تركيب ولكن بمجرد أن يقذف بهذا اللفظ في التداول اللغوي، وتتناقله الألسنة يفلت من إرادة مخترعه، ويخضع في

[1]–بتصرف عن الويكبيديا الموسوعة الحرة .

تطوره لقوانين ثابتة صارمة لا يستطيع الفرد أو الجماعة إعاقتها أو تغيير سيرها الطبيعي "[2]. هناك إذا حالتان لابد لنا من أن نعتقد بحدوثهما فيما يتعلق بالسير الطبيعي للغات ، الأولى الاعتقاد بإمكانية تطور اللغة ضمن سير المجتمع مع تبدل الأزمنة وتغير العالم والأشياء ، أو أن نفترض اللغة– كما رأينا – في حالة استقلال عن تطور اللغات بصفتها موضوعا تتم دراسته علمياً ،وموضوعياً بعيدا عن أي حالة إنسانية معاشة بالتالي فإن التطور المفترض لأي كائن طبيعي يفترض بالنتيجة العزل عن الوجود الذي اعتاد هذا الكائن الظهور فيه ،و إلا فسيواصل رتابته المعهودة ، ولن يكون بالإمكان أن يتميز عن الأشياء الأخرى في العالم ،فحالة العزل المفترضة هي التي ستسمح لهذا السياق بالتحول عن غيره ، السؤال المطروح : هل هذا ممكن لغويا كإمكان حدوثه في الطبيعة للكائنات الحية ؟وبالتالي لابد من معالجة مبدأ القانون، والسير الطبيعي، لنجد مخرجين يمكننا من خلالهما معالجة الظاهرة اللغوية عبر مستويين، " في المستوى الأول باعتبارها نسقاً مستقلاً ذاتياً،يعكسُ عمليَّة التوحيد الاجتماعي ، إن اللغة عنصر من عناصر المجال العملي لها مَدّ ، أي مادة صوتيّة توحدها مجموعة من الممارسات ، ويتخذ الباحث اللغوي كليّة العلاقات هذه موضوعاً لدراسته ،وله الحق في القيام بذلك ما دامت هذه الكليّة مُشكّلة سلفاً ، هذه هي لحظةُ البنيَّة حيث تبدو الكليّة وكأنها شيء دون الإنسان كأنها شبكة من التعارضات يتحدد كل عنصر فيها من طرف عنصر آخر"[3]، و من خلال الكليّة قد يتم الإفلات من ارتباط الظاهرة اللغوية بالحالة المجتمعية ، أو بحالة اللغة بوصفها المحرك الأساس للتواصل بين الكائنات الإنسانية ، لأن هذه الكليّة ترفع الحالة اللغوية المتشكلة أصلا إلى مرتبة الموضوع ، ولكنه موضوع مُتغّير مُتحّول ، تتم ضمنهُ عمليّات تجمع بين السير الطبيعي للدلالات اللغوية الاعتباطية– بالرجوع إلى الحالة الاجتماعية – وبين دراسة الأبستيم اللغوي الذي انبثق من حالة العزل الذي خضعت له اللغة عن طريق التركيز على البنية ، هنا سنلاحظ أمرين قد يكون النتاج منهما متعارضاً على الرغم من المصدر الذي يجمعهما ، الأول التطور اللغوي بفضل الحالة المجتمعية المستمرة والتي تخلق طرقاً جديدة للتواصل كل يوم ، وبين التطور الثاني في الحالة التي تم فيها عزل اللغة ، هذا العزل الذي نعتقد إنه يتعارض مع الحالة التاريخية الذي يفترض أن تنمو اللغات على أساسها وبالتالي سنعود إلى نقطة البدء التي ستشكل عقبة في وجه اللغات المتطورة بنيويا، وهي إمكان نقد و تقنين القوانين والأسس التي ستتم دراسة هذه اللغات على أساسها ، وهذا ما عكفت الفلسفات اللغوية المعاصرة على فعله فنحن ينبغي أن نشير إلى الجهد الفلسفي اللغوي على أساس طرح سؤال حول الأولويات التي ننطلق منها، وصولا إلى القانون حيث إنه " دائما تكون الأولوية لسؤال ما هي اللغة ؟ ،إن إشكالية الأصل دشنت ثورة فلسفية كبرى ، وهي الثورة التي ستفصل بين الطبيعة ، مجال القانون الفيزيائي والحتمي ، وبين الثقافة مجال القانون والتاريخ والحرية البشرية "[4] .

يتضح لنا إذا مذاهب عدة حول الأصل اللغوي والتكوين المعرفي للغة ، سمحت بتعالي الظاهرة اللغوية ، حيث أصبحت اللغة تسبق حضور الإنسان ، وتتجلى بهيئة ضبابية في الدراسات الإنسانية ، لتتحول اللغة إلى ملكوت من الأصوات والرموز والدلالات لا يتيح للإنسان مجالا لاختراقه ، أو الانتساب إليه ، فاللغة بعد الأنثربولوجيا اللغوية أخذت تنقلب على خالقها الآدمي، وتسمح لنفسها بخلق النظم والقوانين والتطور من الداخل بالتالي " نستطيع القول في النهاية إن علم اللغة أصبح الآن بعيدا عن السمة التاريخية ، وبدأ العلماء بدراسة اللغة دراسة وصفية علمية دقيقة "

---

[2]– معاذ ، مها . الأنثربولوجيا اللغوية ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، 2009 ، ص81 .

[3]–فوكو ، ميشيل . هم الحقيقة ، ت : مصطفى المسناوي ، مصطفى كمال ، محمد بولعيش ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2006 ، ص 19 .

[4]– أورو ،سيلفان .فلسفة اللغة ،ت: عبد المجيد جحفة ، دار الكتاب الجديد ، بنغازي ، ط1 ،2010 ،ص 29 .

[5]. ونحن نحاول إيضاح جوانب هذه المحاولات من قبل علماء اللغة والعلامات التي خلّفوها ورائهم والتي أثرت على سير علوم اللغة في القرن العشرين .

ثانياً – علم اللغة والاستقلال عن السمة التاريخية :

في القرن العشرين بعد السيطرة المركزية للعلم، وللنزعة العقلية التي حاولت إعطاء أجوبة مقنعة لكل شيء ، وتقديم حلول وقوانين تتناسب مع الحركة المتصاعدة للعالم الذي بدا ، وكأنه لن ينتظر أي تأخير فيما يتعلق بالحالات العالقة ليس فقط علميا بل أيضا بالنسبة للفكر والفلسفة ،هذا المنهج أخذ يتحول إلى أيقونة لا بد من تقديم القرابين لها والتضحية بالكثير ، حيث لا مجال يسمح بالعودة إلى ما قبل الدراسة اللغوية الحديثة التي تخلت عن المعنى في سبيل الوصول إلى القانون .

افتتحت مرحلة الرجعية القرن العشرين ،وهي المرحلة التي أخمدت الانطلاقة البشرية نحو تحقيق الإنسان التاريخي الحي لتعبّر في أوجها عن المظهر الحضاري الميتافيزيقي المرتبط بالفكرة ،وليس بالفعل ، الفكرة التي اقتُطعت من العالم كما اقتطَعت من الإنسان لحظة معينة لتتم دراسته من خلالها لتنشئ على تلك اللحظة النظام ، والقانون المعرفي للإنسان الصنم ،فمثلاً " في ظل نيتشه تصبح لغة الفرد هي التي تحدد معرفته بالعالم أي إن المعرفة الوحيدة بالواقع هي التي تأتي عن طريق اللغة "[6]، وهكذا شيئا فشيئا يتبدى لنا إن الإنسان، ولغة الإنسان مرتبطان ارتباطا مقدسا ، وليس ارتباطا عضويا المقدس ،لا يتغير، لا يختلف ،لا ينقص، ولا يزيد، يبقى جامدا وحركته ذاتية فلم يعد للإنسان من مفر من معرفة جامدة كجمود لغته وانتظامها ، هذه برأينا كانت تُمثّل الانطلاقة الأولى التي على خطاها سيسير البحث اللغوي لذا بالنسبة للدراسات اللغوية في القرن العشرين يمكننا أن نميز ثلاث اتجاهات رئيسية " الأول هو التراث المتواصل للأعمال القواعدية والأعمال اللغوية الأخرى التي أعدها علماء أوروبيون بطرق مختلفة منذ العصور القديمة ، والثاني هو الفهم المتعاظم للعلم اللغوي الهندي خاصة في الصوتيات والفنجليا ، والثالث هو تمثل العلم اللغوي وبشكل خاص في توجهه التاريخي لمواقف عامة للقرن التاسع عشر ، ولنظرية المقارنة ونظرية التطور والنظرية الوضعية للعلوم الطبيعية "[7] وعندما يوصف علم اللغة بالوضعي كل ذلك يعد انجازا من إنجازات علم اللغة ، والذي قامت العلوم الاجتماعية باستنساخ تجربته ، حيث اعتبر ستراوش أن دراسة البنية الاجتماعية من خلال طرائق علم اللغة سيتيح تماسا مع المناهج العلمية ، كما وجد فيه علما كاملا استطاع فتح باب العلم على عالم الفكر، ومن هنا فإن " أبرز ما قام به ستراوش هو سحبه مفهوم التزامن من علم اللغة ومحاولة تطبيقه على الأنثربولوجيا من خلال أسبقية اللاوعي ، إذ يشترك فيه الإنسان البدائي مع الإنسان المعاصر " [8] ، وإذا ما أخذنا بتجربة ستراوش هذه ، سنجد البنيوية قد انبثقت مباشرة بعد تطبيق ستراوش لمنهج علم اللغة على المجتمع في الأنثربولوجيا البنيوية، ليحقق نقطة التقاء مهمة بين علم الاجتماع، واللغويات من جهة وبين المنهج العلمي الذي ساد في أوروبا، والمناخ الذي بدأ يحقق بداية لنظام فلسفي حديث خلق حالة من توحيد الأبستميات ، إذ سيشير فوكو فيما بعد إلى تشكيلات للعلوم

---

[5]–معاذ ، مها . الأنثربولوجيا اللغوية ، ص104 .

[6]–حمودة ، عبد العزيز . المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ،عدد 232 ، 1998 ، ص 119 .

[7]–روبنز ،ر،هـ .موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب) ،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ،عدد227 ،1997 ،ص 317 .

[8] –عباس حسين ، مؤيد . البنيوية ، دار رند ، دمشق ،ط1 ، 2010 ،ص 33 .

الحديثة ، وخصوصا للعلوم الإنسانية ذات بنية أركولوجية تتقاطع فيها خطوط المعرفة الإنسانية وتحقق ثباتا في وجهتها، وبنيتها، وبالعودة إلى ستراوش نجد مبدأ القرابة الذي عليه طبق ستراوش عليه منهج علم اللغة يحقق نقطة انطلاق للبنيوية عند العديد من المفكرين ،كما نجد أسبقية اللاوعي التي تشترك فيها انثربولوجيا ستراوش مع فرويد تحقق نقطة قطيعة مع التاريخ الذي يستند إلى الوعي كدعامة وجود الإنسان الحي المتحقق ، ولهذا ستراوش يؤكد على" الطبيعة المستقلة للذهن البشري على نحو يكاد يكون معه فيلسوفا مثاليا ،كما لو كان لدى الذهن استقلال خاص به يجعله يعمل بطريقة مستقلة عن الأفراد والجماعات الإنسانية ..... وهذا يقود إلى عد اللغة هي التي تسيطر على الناس بأنظمتها وليس العكس "[9]وهذا الأمر يجعلنا نتساءل حول إمكانية حضور الإنسان الفاعل تاريخيا ،ضمن المعادلة التي تضع اللغة في مواجهة الإنسان ، وكأنه طرف مستقل مقابل العلوم التي تنمو حوله ، وإن كانت مرتبطة به ، وهو أمر مستحيل.

البنيوية لا تضع ذاتها في مواجهة التاريخ ، والتعارض المبدئي الذي يتبدى لنا من إشكالية البحث التاريخي، الذي يكشف عن وسائل تتجاوز أي جمود فيما يخص الحركة المتقدمة للمجتمع البشري ،والتي تفلت من أي لحظة ميتافيزيقية ، هذا التعارض لا يستمر إلى درجة التخلي عن الصبغة التاريخية بالتالي إن خروج علم اللغة عن إطار التاريخ بالنسبة للبنيوية لم يكن لاستبعاد التاريخ، بقدر ما كان بحثا عن تأخر النظام التاريخي عن تحليل البنى التي تكونه ، لنجد في هذا المسار إن" البنيوية وجدت وسيلة للتوفيق بينها وبين النزعة التاريخية ،عن طريق التفريق بين الإطار العام والمضمون الداخلي في كل حدث تاريخي ، فمضمون الأحداث التاريخية ، والمادة المحتواة فيها هو الذي يختلف تبعا للعصور و المجتمعات ، ولكن هذا المضمون المتغير يكشف عن تنظيم يظل على ما هو عليه مهما اختلفت السياقات الاجتماعية والتاريخية ، فما يخضع للتاريخ هو المضمون أما البناء فهو فوق التاريخ " [10].

لقد عُدّ الهروب إلى اللاوعي الملجأ الذي اتخذته الدراسات البنيوية اللغوية الحديثة لتفر من الواقع التاريخي، هذا الواقع الذي لن يقدم نتائج مطلقة لتصبغ بالصبغة الموضوعية للعلم ، العلم الذي يحاول الوصول إلى كنه الأشياء وفهم تفاصيلها بعيدا عن التغير ، لم نفترض ذلك ؟ لأن توقف التاريخ منح العلوم الإنسانية الحديثة تلك الأيقونة الجديدة اللغة، لأن " اللغة هي الظاهرة الاجتماعية الوحيدة التي تبدو اليوم قابلة للدراسة العلمية حقا ، تفسر طريقة تكونها ، وتتوقع بعض أوضاع تطورها اللاحق لقد تم الحصول على هذه النتائج بفضل الفونولوجيا ، وفي إطار توصلها إلى حقائق موضوعية ، فيما وراء تظاهرات اللغة الواعية والتاريخية السطحية دائما "[11]، الفونولوجيا تدرس البنية التحتية غير الواعية للغة ، العالم الذي يتكلم اللغة ، والذي يحولها إلى خطاب لا مرئي يحث الخطى ليحقق تأثيره في زوايا الفكر والثقافة .

بذلك تكون البنية قد بدأت تسيطر على نظم ومناهج دراسة اللغة ، ليظهر إن المتبقي من تأثير الوعي اللغوي، تحوّل مع البنيوية إلى جسد مكتمل يساعد على تأسيس مادة علمية تامة النضوج ، فتكون البنيوية قد حققت خط سير رجعي للمعارف اللغوية ،يتبدى لنا من سؤال ستراوش حولها – حول البنيوية – ، " ما الذي يدرسونه على وجه التحديد؟ ماهو ذلك الشيء اللغوي الذي يبدو إنه ينفصل عن الثقافة، والحياة الاجتماعية ، والتاريخ ؟ وهؤلاء الناس أنفسهم الذين

---

[9]–المرجع السابق : ص 35.

[10]–المرجع السابق : ص42 .

[11]–ستراوش ، كلود ليفي . الأنثربولوجيا البنيوية ، ت: مصطفى صالح ' منشورات وزارة الثقافة ' دمشق ، 1977،ص 78 .

يتكلمون ؟ " [12]، سؤاله هذا كان أشبه باعتراف تام بإنجاز اللغويين ، الذي تحقق في لحظة خلق منهج البنيوية الذي تقرّب منه ستراوش في دراسته لمبدأ القرابة، باحثا عن سبيل لدراسة تتفق مع الطرق، والوسائل العلميّة الحديثة لبحوث المجتمعات البشرية .

ثالثاً – البنيوية : لحظة خلق النسق الذاتي للغة :

إذا كانت مقاربة كلود ليفي ستراوش لمبدأ القرابة مع العلوم اللغوية ، قد فتحت الباب أمام الدراسات اللغوية البنيوية ، فإن ذلك قد مهّد لخلق حالة تنتظم فيها اللغة على شكل نسق يخرق حصار الإنسان المتكلم ، ويتحول إلى هيئة علمية ،وهذا ما رآه الكثير من المفكرين، لذا فإن خلق النسق الذاتي يتم عبر الالتفاف على المحتوى التاريخي الخلّاق للحالة اللغوية ، تحييد هذا المحتوى وضبطه ، هذا الضبط هو محاولة لالتقاط أطراف المسألة اللغوية ،لذا"بدأ العلماء في أوائل القرن العشرين التخلص من طغيان نظرية التطور، وأخذوا ينظرون إلى اللغة على إنها بنية، أو نظام عناصره المختلفة تعتمد بعضها على بعض ، و وجود هذا النظام مهم بالنسبة لفهم كل من التغيير اللغوي ، واللغة من حيث هي لغة والدور الذي تقوم به اللغة في المجتمع "[13]، وبالوصول إلى عرض البنيوية لوجهة نظرها نرى اللغة تتحول من جملة المفاهيم والمعاني ذات الفاعلية، والملمس البشري إلى ألفاظ فارغة ونصوص متحللة ، تجمع بين مقتنيات العلوم الحديثة ، وبين اللغة الشعرية التي تُدرس ظاهريا ليس كحالة من الشعور الفردي الملازم للعالم، بل على العكس إلى حالة ملازمة للنص ، لتعبر باعتقادنا عن تحجر الثقافة ، وعن الإنسان الذي يشهد دوره يتحول من فاعل إلى كاتب ومدون لتاريخ ماض ، هكذا يكون الإنسان المجرد من الفاعلية وهذا يعّد كما نرى إرثاً لما بعد الحداثة فإن " معظم العلماء وعلى رأسهم سابير – كروبر – دوركايم وأخيرا ليفي ستراوش ينظرون إلى اللغة باعتبارها ظاهرة مستقلة بذاتها، وإن كانت جزءا متكاملا من الثقافة ،وإن تغيرها من الداخل نتيجة تفاعلات بين مكوناتها ، وإذا كان التغير على مستوى واسع النطاق ، فإن تأثيرات العناصر المشتركة معها في البناء الثقافي العام يمكن أن يكون لها فاعلية "[14].

و إذا ما كان تغّير اللغة مرتبطاً بتفاعل الثقافة مع عناصر سابقة، بالتالي سيبقى تأثير هذه الثقافة محصورا بإمكانية تفاعل اللغة مع عناصر أخرى هذا من جهة ،ومن جهة أخرى سيكون هذا التفاعل، وناتج هذا التفاعل محصورا ببقايا سوابق هذه الثقافة، فكيف يمكن أن تتطور اللغة، وتتطور الثقافة بدورها في مجال لا يبتعد عن المركز بتاتا بل يبقى على ارتباط به ، ارتباطاً وثيقا لا يمكن الإفلات من سلطته ،هذا المركز برأينا ليس إلا القول البنيوي للغة والثقافة معا، حيث إننا نجد إننا عندما نميز بين الظاهرات اللغوية، والظاهرات الثقافيّة إن الاختلاف يتبدى" في إن الظاهرات الأولى لا تظهر في الوعي الواضح أبدا، فيما ترتفع الفئة الثانية على الرغم من انتمائها إلى المصدر الشعوري نفسه إلى مستوى الفكر الواعي ، مولدة على هذا المنوال بعض المحاكمات الثانوية والتفسيرات الجديدة " [15]، الآن سنعيد طرح سؤال ستراوش " ماذا تدرس البنيوية إذا ؟" لنفترض إنهم يدرسون اللغة كظهور نمطي في مناخ الثقافة ، كظهور يُعبّر عن نسق اللغة ذاتها إذن يجب أن تتوافق نوعيّة الثقافة، و محتواها مع المحتوى الذي تقوم عليه اللغة ، ولا يمكن الخروج عن ذلك ، فحسب فرويد الذي نستند هنا إلى اللاوعي عنده اللاوعي يعد أساس فاعل محّرك ،واللاوعي أيضا يقود الشعور، ويُحركه فيكون سيرنا آليا نحو تعقب أثر اللاوعي.

---

[12] –المرجع السابق : ص 91 .

[13] –معاذ ، مها . الأنثربولوجيا اللغوية ، ص101 .

[14]– المرجع السابق : ص 119 .

[15]– ستراوش ، كلود ليفي .الأنثربولوجيا البنيوية ، ت: مصطفى صالح ' منشورات وزارة الثقافة ' دمشق ، 1977 ، ص72 .

وإذا ما أخذنا بالاعتقاد السابق حول فرويد ،فإن كل إنسان فيه عناصر تتفاعل لتخلق سلوكه، وبالتوازي مع ذلك " لغة كل شخص تكشف عن مدى التعقيد في تصّوره للعالم ،فالذين لا يتكلمون سوى اللهجة العاميّة، أو يفهمون اللغة القوميّة فهما متوسطا ، يتسمون ضرورة بحدس للعالم متفاوت الضيق والإقليمية ، ومتحجر وغير منسجم مع العصر إزاء تيارات الفكر الكبرى المسيطرة على التاريخ العالمي "[16] ، بالتالي فإن النسبية اللغوية التي تعبّر تماما عن هذه الفكرة ستشكل محورا يسمح بالهروب من الحالة البنيوية نحو توجهات أخرى .

رابعاً – الرسوخ البيولوجي وتاريخية اللغة :

اللغة نظام يميزها عن غيرها من نظم التواصل بين الكائنات الاخرى، بكونها تتصل، وترتبط بالمستوى البيولوجي وفي ذات الوقت تتحول من ظاهرة طبيعية إلى حالة تعليمية مكتسبة إنسانيا بفعل التطور، والحركة ، والتغير، أي بفعل تغير فهم البشر للعالم ، حيث جاء تشومسكي بنظرية تحدد القدرة اللغوية الفطرية على إنها أساس غريزي مصدره قدرة الإنسان على تنظيم مفرداته، ومعارفه، بشكل يعّبر عنه لفظيا بالضرورة، فلا وجود للإنسان العاقل الذي ينطق بما

لا يدرك ويعلم حيث يبدو للإنسان قدرة فطرية، تُشكل خلفية لُغوية تُمكّن الإنسان من قولبة كل ما يسمع ويرى ،على شكل مفاهيم ومصطلحات ،أو كلمات ، ورموز يعّبر عنها بشكل لغة "وهكذا يكون تشومسكي قد عمل على إحياء نظرية القواعد العامة ، أو الواحدة لجميع اللغات تلك النظرية التي نادى بها الإغريق القدماء من قبل كما نادى بها سوسير، إلا إن تشومسكي لم يترك هذه المسألة مجرد نظرية هائمة، كما إنه لم يلجأ إلى المنطق كما فعل القدماء بل حاول أن يتوصل إلى تلك القواعد اللغوية العامة"[17].بالتالي نجد إن المبحث الأساسي يتجه نحو إمكان تحديد خلفية النظام اللغوي ،و نجد في هذا المنحى بحوثا تتعلق بالحتمية اللغوية ، التي تميل نحو الاعتقاد بأن اللغة تشكل الفكر ، أي إنها من خلال الأنظمة والبنّية تحدد طريقة التفكير ، حيث إن هذه الكليّة التي بحث عنها تشومسكي كانت تحدد أفكار النّاس فعلا.

ومن وجه التناقض بين الحتميّة والنسبية* اللغوية نحدد منحى الاثنين ، النسبيّة اللغوية تشير إلى أن بنيّة اللغة تؤثر بشكل، أو بآخر على طريقة فهم البشر للعالم ، ولكن هذه البنّية تبقى مرتبطة بتفاعلها مع خبرات الجماعة ، والدليل على ذلك يظهر في الطرق المختلفة التي يفهم ، أو يحيط البشر بها عالمهم ،لنجد اللغة تتغير من مكان إلى آخر بتغير طريقة فهم العالم بالتالي تجسد اللغة رؤية للعالم من خلال كونها نظاما ،وبنيّة، ومن خلالها كونها نتاج انعكاس الأفكار ، حيث إنه من الملاحظ "إن البشر الذين يملكون لغات مختلفة جدا لا يفكرون بنفس الكيفية بالنسبة إليه الترابطات القائمة بين الألفاظ ، والمورفيمات التي تنبثق من المقولات، والنماذج التي تنتج عنها الدّلالة اللغوية توافق ترابطات، وسيرورات اخلاقية ،عصبيّة من نوع حركي صامت ،وغير مرئي، وغير قابل للملاحظة فرديا هكذا تتوصل فرضيّة النسبيّة اللغوية إلى نوع آخر من لغة الذهن "[18]فحين نقول إن فاعليّة اللغة تحدد طريقة التفكير عند المجتمع

---

[16]– تكسيه ،جاك . غرامشي دراسة ومختارات ، ت: ميخائيل ابراهيم مخول ،مراجعة : جميل صليبا ،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ،1972 ، ص 143 .

[17] –خرما ، نايف . أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ،سلسلة عالم المعرفة ، العدد 9 ،الكويت ، 1987 ،ص96 .97 .

***نسبيّة المعرفة Relativity of Knowledge ميزة المعرفة البشرية بكونها نسبيّة الأمر الذي يمكن فهمه بعدّة معان مختلفة تقبّلها شتى الفلاسفة أو رفضوها فحسب تحليل هاملتون تكون المعرفة البشرية نسبيّة إذ لا يكون الوجود قابلا بذاته للمعرفة معرفة مطلقة بل في أنماطه ومظاهره بكلام آخر لا يمكن للمرء أن يعرف الأشياء بل العلاقات فقط .... موسوعة لالاند ص 1201 .**

[18] –أورو ،سلفان .فلسفة اللغة ، ت : عبد المجيد جحفة ، دار الكتاب الجديد ، بنغازي ، ط1 ،2010، 106 .

،فإن ثقافة المجتمع هو نتاج لنظام لغوي مؤثر ومتأثر ، مؤثر من حيث إنه قالب فكري له قابليّة لا شعورية فاعلة، دائمة لا حتمية ولا إطلاق فيها ، فهو أرضية فكرية ، لكنها بسبب اختلاف طرق تمثّل العالم بالنسبة للثقافات المختلفة ، فإن هذه اللغات تختلف ، فإننا بالتالي عندما نحدد الحتميّة اللغوية من كونها تفترض إن اللغة تحدد بالإطلاق شكل الفكر من خلال انظمتها بنيّتها وطرق توضع مفاهيمها ، فإن النسبيّة اللغوية من خلال محاورها تربط اللغة بالمجتمع لتحقق بذلك التفافا على مشروع سيطرة البنيوية الكاملة، التي ألغت التاريخ لنجد التاريخ يعاود ظهوره في المجال النسبي، فيما بعد إننا نجد " إن ربط العناصر المختلفة لتحليلات سوسير اللغوية بعضها ببعض، بدلا من ربطها ببعض العوالم الخارجية للغة،خلق نقاشات لا تحصى جوهر هذه النقاشات كان حول طريقة سوسير والبنيوية "[19]فكيف يمكننا وصف هذه العلاقة ،بين اللغة والعالم الخارجي ؟ ، باعتبار إن وصف هذه العلاقة هو ما سيحدد فهم البنيوية لظاهرة اللغة ، وطريقة معالجة الحقيقة بين العالم اللغوي ، والواقع المقصود .

خامساً – ماهي اللغة .. السؤال الفاصل بين الطبيعة والثقافة :

بين الحتميّة اللغوية والنسبيّة اللغوية نجد حالة فهم اللغة، وقد سيطرت عليها ميول نحو أحد الاتجاهين الحتمي والنسبي ،حيث إن الحتمية قد تحولت إلى سراب مع تدّخل التاريخ ، والتاريخ بأوجه العالم المتغير ، واختلاف مستويات الفهم والتحليل والترميز تحول إلى وجهات نظر، لم تعد قادرة على استيعاب التطور الواسع للغات لتنتقل إلى تحديد طبيعة اللغة، لكونها نتاج خالص من المعنى، ومن إبداع العالم بشكله كنظام من الطبيعة التي يلجمها الفكر ،فهل تُحدد الطبيعة من خلال الفكر من خلال فاعليّته اللامحدودة ؟ كيف يمكننا أن نقطع الطريق على استيعاب الذات لأنظمة الطبيعة ، والإنسان ؟ الإجابة تنتقل بنا إلى مستوى جديد من السيطرة الإنسانية على العالم "حيث إن نسق العلامات والإشارات يختلف باختلاف الثقافات، فالثقافة تلعب دورا هاما في تحديد أنواع العلامات والإشارات والرموز المستخدمة في مجتمع ما ذي ثقافة متميزة، ومثلما تقسم الثقافة اللغة الواحدة إلى لهجات متباينة متعددة تقسم أيضا الإشارات إلى أنواع مختلفة وكثيرة فكل مجتمع ، أو شعب له علاماته، و رموزه الخاصة التي تعبّر عن مفاهيمه من خلال إطار ثقافته السائدة "[20].

اللغة كما يُعتقد تعيش، وتتطفل، وتتطور من خلال ثقافة المجتمع، فهي تماما كائن متطور تسيطر عليه العديد من النظم الاجتماعيّة ، اللغة إذاً هي خلق ثقافي ظهر مستقلا عن فكر وطبيعة على شكل تاريخ ، أي على شكل متطور من النماذج المعرفية الخالصة التي قد يكون من الممكن تحديدها بالفكر والطبيعة ، فهي ليست نُظما معرفيّة من قوالب جامدة وهي ليست وظيفة متعلّقة بالجنس البشري، وجذور الحيوانية بل هي استقلال خاص متعلّق بالتاريخ .

الثقافة بدورها ليست وعياً متعالياً ، ليست تقليدية بمعنى من المعاني ، إنها نتاج حضاري خالص يكشف عن نظم ، وبنى تعاونت لتكوّن فهما خاصاً للعالم، قلنا سابقا إنه اختلف ، واختلفت معه اللغات، فالثقافة من وجه التعبير خارجة عن فهم أصيل عفوي لما حول البشر ، لكن لتنتقل إلى مستوى معرفي ، عبرت أيضا عن فهم نقدي مرتبط بالوعي حيث نجد في هذا السياق إنه " بعد إثبات كون جميع الناس فلاسفة، وإن بطريقتهم الخاصة ، و دون وعي لذلك لأن في أقل مظهر لأي نشاط فكري ، أي اللغة مفهوماً محدداً للعالم ، يمكن من الانتقال إلى اللحظة الثانيّة لحظة النقد والوعي "[21].

---

[19]-Ives,peter.Language And Hegemony in Gramsci,PlutoPress.Londone , 2004 ,P70.

[20]– معاذ ، مها . الانثربولوجيا اللغوية ،، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، 2009 ، ص 45 .

[21]– ساليناري ، كارلو . سبينيلا ، ماريو . فكر غرامشي،ت: تحسين الشيخ علي ،دار الفارابي ،بيروت ، 1978 ،ص 204 .

اللغة إذا تبقى أرضيّة فكرية ، وإن كنا نريد العودة خطوة إلى الوراء بقصد إغناء الفهم ، نجد إن لغة الذهن أي الذي لا يقال من الفكر بل يبقى في إطار الحكم ليعبّر عن آليّة تمثيل اللغة ، هذه اللغة تبدو اعتباطيّة، و غير قابلة للتحديد في الوقت الذي نجد "إن اللغة التعبيرية هي أساسا اسم جماعي ، لا يفترض أمرا مزيدا لا في مجال الزمن ، ولا في مجال الأبعاد فاللغة التعبيرية تعني أيضا الثقافة ،والفلسفة ، والواقع ، إن اللغة التعبيرية هي العديد من الحقائق المنسجمة والمتسقّة عضوياً إلى حد ما "[22].

اللغة التعبيرية هي بدء اللحظة الثقافيّة – الاجتماعية بالنسبة لأنطونيو غرامشي ، حيث لا وجود لفلسفة مكتملة ولا حضور لنظرية فلسفية تامّة متجاوزاً أزمة الماركسيّة ، فالنشاط العملي الفاعل للفكر الإنساني كوصلة بين الوجود الواقعي، والفكر الذي يعي الواقع ، يفسر كيفية الاتحاد بالعالم عبر الوعي وعبر التنظيم .

سادساً – اللغة ، الخطاب : الموضوعات الرئيسية لدراسة اللغة في مرحلة ما بعد الحداثة :

اللغة هي أداة للتعبير عن ماهيّة الخطاب ، و الخطاب هو المفرز من مجموع الظواهر الثقافية التي أنتجتها مرحلة أفكار أو عصر ما ،أي هو منطوق هذه الظواهر المنتج عنها، وما يعبّر عن استشرائها وتحولها إلى نمط متبع، اللغة تقال، والخطاب يُنطق به ، معبراً بأشكال عدّة ،وإن سألنا ماذا يكمن وراء اللاوعي الإنساني الذي يظهر في الخطاب الأوروبي اللاعقلاني في مرحلة مابعد الحداثة ؟"إنه لا وعي يعمل كما تعمل اللغة "[23]يجيب فوكو .

إن دراسة حياة الكلمات ، و تطور النمو، ومقارنة الألسن بعضها ببعض ، تكشف الإنسان بجوانبه، وتعلقاته لكن ما وجده باحثوا اللغة، كان النسق المنطقي لهذه اللغة ليس إلا ، وقد تحددت بقوانين ومفردات بلا أي أبواب تتيح التغيير ،فالخطاب إذاً هو حالة متعالية للتعبير عن اللغة ، لذا نجد إرث ما بعد الحداثة يقف عند الخطاب ليفسر كون اللغة مجرد استعارة عن النظم الفكرية التي سبقت عصر الإحاطة بمفهوم الخطاب، وبدء تناقله بين الفلاسفة اللغويين والألسنيين لدى فوكو الخطاب استراتيجية لها أهداف ومصير .

الخطاب هو الاستعارة العليا بعد اللغة ، فإن كان غرامشي قد "وجد في البنى اللغوية صيغة من صيغ الهيمنة تؤمن فهماً مختلفاً لذلك التوتر الحاصل بين ما يقدمه غرامشي بوصفه هيمنة تامة، و للاختلافات في مثل هذه الهيمنة فيمكن لأي منا أن يقترح لغة واحدة ، من دون أن نختلف فيما إذا كان الآخرون يجب أن يقولوا ذات الشيء أو أن يقفوا ذات الموقف ، ضمن تلك اللغة ، اللغة استعارة مذهلة بما إنها بناءة جدا ، وهذا ما يُنصّب منها لغة، إنها ما يسمح بإبداع معان مختلفة ضمنها أكثر من ذلك غرامشي يفهم اللغة بكونها حالة بشرية يجب أن تتغير وسوف تتغير مع الأيام "[24].

هذا الكلام يعني إن غرامشي يصادر طبيعة الفكر اللغوي ليقيم عليها اساسا عفويا للعيش البشري فهو الإنسان المتكلم الحي ، الخطاب يصادر بدوره قوانين العلوم وأسسها الأبستمولوجية الكامنة في أدوار الاقتصاد العلوم، واللغة ويجعلها كلها تعبر عن منحى واحد ، نحن هنا لا نشير إلى فرق بين الخطاب، واللغة، بل إلى تطور في منحى الفهم عبر تاريخ الفلسفة ، فإذا ما اعتبرنا إن غرامشي في بدايات القرن العشرين ، كان يحاول أن يرجع الطريقة الماركسية لتكون فهما لا دوغمائيا متطورا للعلم ،فإن ما بعد الحداثة عن طريق هيمنتها على تاريخ المعرفة استطاعت أن تصادر منحى التفكير ليكون مندمجا بعضه ببعض كفكرة عامة مغلفة بالميتافيزيقيات، التي تدّعي الاختلاف "فعالم الخطاب

---

[22] –المرجع السابق : ص 234 .

[23]– فوكو ، ميشيل .هم الحقيقة ، ت : مصطفى المسناوي وآخرون ،منشورات الاختلاف ،الجزائر ، 2006 ،ص29 .

[24]- Ives, Peter. Language And Hegemony in Gramsci , Pluto press, 2004,P 68,69.

يصبع عوالم وحتى هذه العوالم لا يجمع بينها سيء سوى إنها قواعد احتياطية للسلطة تطلق منها كلما استشعرت الخطر "[25].

سابعاً – الاختلاف عماد الفلسفة التفكيكية :

وجدنا مع تقدم علم اللغة إلى الواجهة في بدايات القرن العشرين ،وتحوله إلى قضية مركزية تغض البصر عن الأزمات المنهجية التي انتهت إلى نقاشات في الحقول المعرفيّة ، لتعيد فهم النصوص ،و لتغدو هذه النقاشات المحور الحقيقي للعديد من المذاهب كالوضعية المنطقية مثلا لنجد" أن جميع نظريات الفلسفة ما هي إلا صيغ لنظام واحد لا يمكن التخلص منه ، لكن بوسعنا أن نتعرف على الظروف الفكرية المصاحبة له ، من خلال الإصغاء إلى ما يسعى هذا النظام إلى ترسيخه في أقل تقدير ، وعلى الرغم من صعوبة القضاء على الميتافيزيقيا فإن بوسعنا أن نعمل على انتقادنا من الداخل بالتعّرف على النظام الهرمي الذي أقامته ، ويقلب هذا النظام راسا على عقب "[26]فاللغة لم تعد وسيلة فهم ، لم تعد قدرة على تنظيم المعارف والنطق بها ، بل إن كل محاولة لإدراك أي معرفة من خلال اللغة بالنسبة للتفكيكية هي اختلاف عنها و اتجاه نحو الآخر ، هذا الآخر هو الحقيقة مؤرخة في المعنى الذي ينأى عن الأشياء لمجرد الإحاطة به ، "بعبارة أخرى يمكن القول بأن العلامة اللغوية تمتلك وجودا حضورا أوليا من نوع ما ، حضورا خاصا جدا ، هوية ،أصلا ،بدءا ، لا يمكن تمييزه إلا من خلال الثاني ، أي اختلاف الذي يؤكد الأول في أوليته"[27]، أين هي اللغة التي يمكن اللحاق بها انثربولوجيا الآن إنها ليست إلا بقايا من تحقق المعارف الأخرى وضعيا ، هي مجرد طيف يمكننا أن نتعرف على آثاره ليس إلا ، إنها حالة غياب متعمد، افترضتها أساليب الانزياح المنهجي عن التاريخ .

سوسير ركز على علم اللغة بوصفه علما مستقلا عن بقية العلوم ، فهو عدّ اللغة ملكة اجتماعية يتبنّاها مجتمع ما ليساعد أفراده على الانتماء ، و التواصل ولكن ما نتج عن هذه الاستقلالية لعلم اللغة عن غيره من العلوم كان له أثر كبير في تعميق أسلوب الاختلاف ليس فقط فيما يخص علم اللغة ، بل فيما يمكننا أن نعده إرثاً حداثياً كاملا وهو إرث مسيطر له هيمنته وله أبعاده ،إنه إرث ما بعد حداثي .

إن فهم سوسير للعلامة اللغوية عدّ عمادا للفلسفة التفكيكية "سوسير عدّ اللغة نظاما من العلامات التي تخلق من الاختلاف معنى، من خلال الاختلافات بين هذه الإشارات (بالتحديد الاختلافات بين الدلالات المختلفة والمحاور الأخرى ، الاختلافات بين المدلولات المختلفة) إذا إن فكرة سوسير التي تقول إنه (في اللغة هناك فقط الاختلاف) تتفق مع معارضي نيتشه بأن اللغة لا يمكن أن ترتكز على بعض الحقائق الخارجية غير اللغوية "[28] .العلامات عدّت بالنسبة للعديد من المفكرين بعد سوسير كائنات سلبية ، غير فاعلة ، الفاعل هو هذه العلاقة بين الدّال والمدلول ، والقراءة هي السبيل المفضي إلى إملاء الغياب الذي تخلفه اللغة وراءها.

ثامناً – النشاط الفلسفي واللغة ، الفاعليّة الفلسفية :

ما بعد الحداثة باعتقادنا أحالت البحث اللغوي إلى بحث في العلامات ، لتظهر اللغة في النهاية بشكلها الأخير ونهايتها ، ولكن العديد من الدراسات والأبحاث التي تأثرت بالحركات الاجتماعية ، عملت على تطوير هذه النظرة حيال

---

[25] –الكبيسي ،محمد علي .ميشيل فوكو ،دار الفرقد ، دمشق ، 2008 ، ص94 .

[26]– حسين ، مؤيد عباس :البنيوية ، رند للنشر ، دمشق ، ط1 ، 2010 ،ص149 .

[27]– عبد الله ، عادل . التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل ، دار الكلمة ، دمشق ، ط1 ،2000، ص49 .

[28]-Ives, Peter. Language And Hegemony in Gramsci , Pluto press, 2004,p132.

اللغة ،لأن "اللغة نفسها التي هي عبارة عن سلسلة من الأفكار، والمفاهيم المحددة ، وليست فقط مجموعة من الكلمات القواعدية الخالية من المحتوى"[29] فهي لا يمكن أن تؤطر بفعل العلم ،لأنها كائن متطور بفعل المجتمع أوضحنا لاحقاً إن الأزمة البنيوية قد واجهت العديد من الجدل حيال تحديد طبيعة اللغة، و هذه المواجهات كانت دائماً تتوقف على حدود منهجية ، حيث لا يمكننا بتاتاً أن نتجاهل كون "اللغة تعني الثقافة ،والفلسفة ، فاللغة إذن ليست حقيقة واحدة بل كثرة من الحقائق المتسقة ، والمتناسقة عضويا إلى حد ما لدرجة أنه يمكن القول بأنه لكل متكلم لغته الخاصة أي طريقته الخاصة في التفكير والشعور "[30]، نجد في اللغة إذاً فاعليّة إنسانية، لذا فهي ذات طبيعة متغيرة لذا "عندما يحل مفهوم جديد محل المفهوم القديم ، يستمر عادة استخدام اللغة القديمة ، ولكنها تستخدم استخدما مجازيا ، فاللغة كلها عملية مستمرة من المجاز وتاريخ السيما نطيقا هو أحد مظاهر تاريخ الثقافة واللغة شيء حي ، وهي في نفس الوقت متحف لحفريات الحياة والحضارات "[31]،فاللغة مرتبطة بالعالم ، و بالأشياء والأحاسيس هي كلها تعبّر عن فاعلية إنسانية ، الإنسان كما أوضح غرامشي يعيش في عالمي الإشارة أو العلامات والأشياء المادية معا ، لا يمكن أن يكون الإنسان سلبيا حيال ما ينتج عن علاقة الأشياء بعضها ببعض ، وعن علاقته بها، فهو يرتبط بالعالم المادي فاعلا ومفعولا به ، فكما إن ماركس استخف بالاتجاهات التي تورطت في عالم الكلمات والأشياء ،وتجاهلت العلاقات القائمة بينها من جهة ، وبين الإنسان من جهة ، فإن غرامشي قد انتهى فيما يعد مرحلة ما بعد الماركسية إلى تحليل العنصر اللغوي بارتباطه بالمجتمع بعيدا عن الأفكار المجردة .

ففي مواجهة الفلسفات الأوروبية الصاعدة ، و التي ألقت على نفسها صفة الماركسيّة ، والتي وقفت عند معالجة المتون والحواشي ، والتي عدّت حركة هيمنة ألقت بظلالها على الفلسفة الأوروبية المعاصرة ، نجد الفلسفات التي حاولت إعادة سير التاريخ إلى حركته التقدميّة فمثلا ،نجد الفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي يطرح فكرة الهيمنة المضادة ، كاشفاً استراتيجيا الفكر الرجعي، ذلك الفكر الذي أظهر المشكلة المتضمنة في تطور المجتمعات الديمقراطية في أوروبا ، لتوضع اللغة أيضا في مرحلة مركزية في مقابل الاتجاهات اللغوية المعاصرة ، كانت محاولته تدور حول دراسة المجتمع الإيطالي ، والأزمات التاريخية التي أوقفت عجلة التقدم الاجتماعي في ظل الحكومة الفاشية ، لنجد إن دراسة اللغة مرتبطة بدراسة المجتمعات في سبيل حل أزماتها .

الخاتمة :

بالانتقال من دراسة اللغة ، بحثاً عن علاقات القرابة بين اللغات المختلفة ، وتصنيف تلك اللغات حسب جذورها ودراسة إمكان تشّكل اللغات الأصليّة ، هذه الدراسة التي شكلت محور الأنثربولوجيا إلى وضع اللغة في موضع التحليل العلمي ، هذه المرحلة التي شهدت فيها الدراسات اللغوية بزوغ فرضيات ربطت بين تكوّن اللغات، و نظمها المختلفة ، وبين المناهج العلمية التي تحاول الوصول إلى القانون والقاعدة ، وكما إن معايير وطرق الوصول إلى هذه القواعد والقوانين اختلفت وتنوعت وتراكمت ، فهي جميعها قد عبّرت كما نعتقد عن إزاحة كبرى للغة عن طريقها المنهجي الواضح لتتجاوز عالم اللفظ والقول ، بالتالي فإن إعادة تفعيل دور التاريخ كان محاولة لحل الأزمات التي اعترضت طريق سير العقل، الذي حُجّمَ بمصادرة أهم عناصر تفكيره وهي اللغة المنطوقة ، أي الكلمة ذات المعنى .

---

[29]– ساليناري ، كارلو . سبينيلا ، ماريو . فكر غرامشي،ت: تحسين الشيخ علي ،دار الفارابي ،بيروت ، 1978، ص203 .

[30]– غرامشي ، أنطونيو . كراسات السجن ، ت : عادل غنيم ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ،1994 ، ص 364.

[31]– المرجع السابق : ص 461 .

إن مراحل تخصص الأنثروبولوجيا هي التي أوحت للمفكرين نقل اللغة إلى العلم ، واختلاف أدوات البحث اللغوية طوّرت نظرية فهم نُظُمِ اللغة، إلى أشكال اختلفت باختلاف المذاهب، وباختلاف المراحل التاريخية أيضا ، حيث أن الأنثروبولوجيا اللغوية طرحت عدّة إشكاليات تتعلق بالنسق الذي يمكننا من خلاله دراسة اللغة، وإذا كان بإمكاننا أن نتوصل إلى نسق يحكم العلاقة اللغوية باستقلال عن الإنسان المتكلم وهو ما شكّل برأينا الأزمة .

اللغة باعتقادنا فاعليّة إنسانية ،وهي بطبيعتها المتغّيرة تطرح هذه الفاعليّة كأساس لتغيرها ، فالإنسان ليس سلبيّاً حيال اللغة، وهي لا يمكن أن تتطور وتنشأ إلا بحضور الإنسان ، فهو الذي أحدث بتكيّفه علاقتهُ مع العالم ، وأوجد اللغة كأداة للتعبير عن هذا التكيّف ، لذا فإننا نعتقد إن دراسة التاريخ بارتباطه الفعلي مع الإنسان بنتاجه كاملاً ستحقق صورة أكثر وضوحاً للإنسان بالنسبة للعلوم .

المصادر و المراجع :

1- أورو ،سلفان .فلسفة اللغة ، ت : عبد المجيد جحفة ، دار الكتاب الجديد ، بنغازي ، ط1 ،2010.

2- حسين ، مؤيد عباس :البنيوية ، رند للنشر ، دمشق ، ط1 ، 2010 ،ص149 .

3- حمودة ، عبد العزيز . المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك ،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت ،عدد 232 ، 1998 .

4- خرما ، نايف . أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ،سلسلة عالم المعرفة ، العدد 9 ،الكويت ، 1987.

5- روبنز ،ر،ه .موجز تاريخ علم اللغة (في الغرب) ،ت : أحمد عوض ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت عدد227 ،1997 .

6- سالينارى ، كارلو . سبينيلا ، ماريو . فكر غرامشي ، ت: تحسين الشيخ علي ،دار الفارابي ،بيروت ، 1978.

7- ستراوش ، كلود ليفي . الأنثربولوجيا البنيوية ، ت: مصطفى صالح ' منشورات وزارة الثقافة ' دمشق ، 1977.

8- عبد الله ، عادل . التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل ، دار الكلمة ، دمشق ، ط1 ،2000 .

9- غرامشي ، أنطونيو . كراسات السجن ، ت : عادل غنيم ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ،1994 .

10- فوكو ، ميشيل .هم الحقيقة ، ت : مصطفى المسناوي وآخرون ،منشورات الاختلاف ،الجزائر ، 2006.

11- الكبيسي ،محمد علي .ميشيل فوكو ،دار الفرقد ، دمشق ، 2008 .

12- معاذ ، مها . الانثربولوجيا اللغوية ، ، دار المعرفة الجامعية ، السويس ، 2009.

المراجع الأجنبية :

1- Ives, Peter. Language And Hegemony in Gramsci , Pluto press, 2004